



الفصل الأول
الجزيرة العربية
في عصر النبوة

الفصل الأول
الجزيرة العربية
في عصر النبوة

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية في صدر الإسلام

توطئة

كانت الحياة السياسية القائمة في الجزيرة العربية إبان الإسلام قائمة على النظام القبلي كما أشرنا آنفاً، ولكل قبيلة من القبائل عصبيتها التي تضمن التماسك بين أفرادها والاعتزاز بانتسابهم إليها، وبذلك تكون العصبية مصدر القوة السياسية للقبيلة⁽¹⁾، ثم أخذت القبائل ترتبط مع بعضها البعض بأحلاف، فأصبحت القبيلة لا تقدم على إعلان الحرب أو الإغارة على قبيلة أخرى، إلا إذا ضمنت حلفاً قوياً مع جيرانها من القبائل الأخرى أو ضمان حيادها على أقل تقدير⁽²⁾.

انبعثت الروح القومية في اليمن إثر استيلاء الأحباش عليها، فكانت هزيمة أبرهة في مكة سنة 571 م باعثاً على إلهاب الشعور القومي⁽³⁾، وتَجَرَّوْ العناصر الوطنية على مناوءتهم، فسعى سيف بن ذي يزن الحميري إلى طردهم من الجزيرة العربية، فضلاً عن انتصار عرب الحيرة على الفرس في معركة ذي قار سنة 609 م⁽⁴⁾، كما كان هذا النصر نصراً للعرب جميعاً على الفرس المحتلين لبعض أجزاء الجزيرة العربية⁽⁵⁾، وهو الذي قال فيه الرسول (ﷺ) «هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصرُوا»⁽⁶⁾، ويُعد الرسول (ﷺ) خير من عبر من خلال قوله هذا عن آمال وطموحات أبناء الأمة في التحرر من السيطرة الفارسية، وقد حقق الإسلام هذه الوحدة بين أبناء القبائل العربية التي كانت تستوطن الجزيرة وغيرها من البلاد العربية⁽⁷⁾.

على الرغم من أن أبناء القبائل العربية في جميع أجزاء الجزيرة كانوا يراقبون تطور الأحداث والصراع بين الفرس والبيزنطيين، إلا أن أبناء القبائل في مكة ويثرب (المدينة المنورة) والطائف اللواتي شهدن نوعاً من التقدم والتنظيم الإداري والاقتصادي، وتميزن عن غيرهن بحكم اتصالاتهن الحضارية واحتكاكهن مع الدول الأخرى ذات الأنظمة السياسية المتطورة، فسعى أبناؤهن إلى الاستفادة من حالة الصراع الدائم بين قوى الاحتلال من أجل تحرير الجزيرة من ريق التبعية لها⁽⁸⁾، ونظراً للدور المحوري الكبير الذي أدته كل من

مدينة مكة ويثرب والطائف في الأحداث السياسية التي عاشتها الجزيرة العربية إبان البعثة النبوية، سنقتصر على دراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيهما باعتبارهن ممثلاً لبقية أجزاء الجزيرة، لاسيما أنهن شكلن النواة الرئيسة للدولة العربية الإسلامية التي قامت في الجزيرة العربية فيما بعد.

1 مدينة مكة

تعد مكة من أبرز وأهم مدن الجزيرة العربية، وهي تقع في وادٍ ضيقٍ منبسط غير ذي زرع، وهي محاطة بالجبال من جميع جهاتها، وقد ورد وصفها في القرآن الكريم⁽⁹⁾، لقد أسهم وجود عدد من الآبار في مكة وأشهرها بئر زمزم بشكل كبير في نشأة الحياة وتطورها فيها، فضلاً عن وجود الكعبة التي كانت تقصدها القبائل العربية للحج والتجارة، كما هيأ وقوعها على طرق القوافل التجارية المتجهة من العراق وبلاد الشام إلى اليمن وبالعكس وبين شمال الجزيرة العربية وجنوبها الفرصة لسكانها لمزاولة التجارة والاعتماد عليها في أسلوب معيشتهم، وتقديم الخدمات للقوافل التجارية المارة بمكة، فأسهم ذلك بشكل كبير في ازدهار اقتصادها ورفاهية وترف أبنائها⁽¹⁰⁾.

أما ما يتعلق بسكان مكة فإن أول من استوطنها العمالقة، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية التي أصبحت لها السيادة على مكة، إلا أنها لم تحترم هذه المكانة، فكثر مظاهر الفساد والظلم في عهدهم، فدخلوا في صراع مع قبيلة خزاعة التي كانت الغلبة لها، وبقيت تلي البيت الحرام لما يقرب من ثلاثمائة سنة، وكانت قبيلة قريش آنذاك متفرقة في بني كنانة، فوحدها قصي بن كلاب وتزعمها⁽¹¹⁾.

تزوج قصي من ابنة زعيم خزاعة حليل بن حبشة بن سلول الذي كان يلي أمر الكعبة ومكة، فأنجبت له أبناءه الثلاثة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى، وعندما شعر حليل بدنواجله استدعى قصي وسلمه مفاتيح الكعبة وعهد إليه بولاية بيت الله الحرام، إلا أن قبيلة خزاعة حالت دون ذلك، وأخذت مفاتيح الكعبة منه بعد وفاة حليل، فاستجد بقريش لمؤازرته ضد خزاعة، كما أزرته قبيلة قضاة تلبية لطلبه، فدارت بينهم الحرب التي توقفت بتدخل القبائل العربية، واحتكموا لرجل من العرب، فقضى بأن قصياً أولى بحجابه الكعبة وبيت الله الحرام من خزاعة، وبذلك أصبح قصي ملكاً على قومه وأهل بيته⁽¹²⁾.

قسم قصي مدينة مكة إلى أرباع، ووزعها بين قومه، وأبقى كل منهم على مكانته التي

استقر بها، كما قام بإنشاء دار الندوة، التي كان يجتمع فيها كبار قريش تحت زعامته، وحدد سن من يدخلها من قريش بأربعين سنة، وأخذ بإطعام الحجاج وسقائتهم، وفرض الضرائب على قومه للإنفاق على إطعام فقراء الحجاج⁽¹³⁾، واحتفظ لنفسه بالوظائف ذات الطبيعة السياسية والإدارية والمالية⁽¹⁴⁾.

قضى قصى بقية حياته محتفظاً بجميع هذه الوظائف بلا منازع، وعندما أدركته الشيخوخة وقبيل وفاته أدرك بأن أجدر من يخلفه في رئاسة دار الندوة والحجاجة⁽¹⁵⁾ واللواء⁽¹⁶⁾ والسقاية⁽¹⁷⁾ والرفادة⁽¹⁸⁾ ولده الأكبر عبد الدار الذي تولاهما بعد وفاة أبيه، وتولاها من بعده أبناءه⁽¹⁹⁾، إلا أنهم لم يلبثوا أن نوزعوا على الأمر من أبناء عمهم عبد مناف بن قصى وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، فانقسمت قريش إلى قسمين الأول: أبناء عبد الدار وبني مخزوم وبني سهم وبني جمح وبني عدي، فسموا بالأحلاف وتزعمهم عامر بن هاشم بن عبد الدار، والثاني: أبناء عبد مناف وعبد الزهرة وبني أسد وبني تميم وبني الحارث، فسموا بحلف المطيبين لأنهم غمسوا أيديهم بالطيب ومسحوها بالكعبة، وكان زعيم هذا الحلف أكبرهم سناً وهو عبد شمس بن عبد مناف، إلا أن الطرفين تصالحا على أن تكون السقاية والقيادة والرفادة لبني عبد مناف والحجاجة واللواء ودار الندوة لبني عبد الدار⁽²⁰⁾.

كما وزعت الوظائف التي حصل عليها أبناء عبد مناف فيما بينهم، فأصبحت القيادة من نصيب عبد شمس وأبنائه من بعده، أما السقاية والرفادة فقد أصبحت من نصيب هاشم وأبنائه من بعده، وبقيت هذه الوظائف موزعة بين القرشيين من أبناء عبد الدار وعبد مناف حتى الفتح الإسلامي لمكة⁽²¹⁾.

في الحقيقة إن النزاع الذي جرى بن قريش من أجل تقاسم الوظائف، لفت أنظار قريش إلى ضرورة مراعاة التوازن في توزيع الوظائف والامتيازات والمناصب الإدارية بين بطونها من أجل الحفاظ على وحدة القبيلة وعدم تكرار ما حدث من نزاع، فتم استحداث وظائف جديدة لا تعدو أن يكون بعضها شرفياً من أجل خلق مكانة اجتماعية لكل بطن من البطون التي تتولاها⁽²²⁾ كالعمارة⁽²³⁾ والمشورة⁽²⁴⁾ والاشناق⁽²⁵⁾ والقبعة⁽²⁶⁾ والأعنة⁽²⁷⁾ والسفارة⁽²⁸⁾ واليسار⁽²⁹⁾ والحكومة⁽³⁰⁾ والعقاب⁽³¹⁾.

ارتفع شأن قريش بين القبائل التي تستوطن الجزيرة العربية نتيجة لتوليها السيادة على

مكة وولاية الكعبة، فضلاً عن عقدها حلف الفضول الذي تعاهدوا فيه على نصره المظلوم والضعيف، وكانوا يقفون معه على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته⁽³²⁾، لقد كان للاستقرار السياسي الذي تمتعت به مدينة مكة، فضلاً عن موقعها المتميز، ووجود الكعبة فيها دوراً كبيراً في تحقيق قريش لمكاسب مادية كبيرة، نتيجة لاتساع رقعة تجارتها مع مختلف البلدان، وكانت قوافلها على قدر كبير من الضخامة بحيث بلغت إحدى قوافلها ألفاً وخمسمائة بعير، وكانت قوافلهم التجارية تذهب في الشتاء إلى اليمن وفي فصل الصيف تتجه للمتاجرة مع بلاد الشام، مما زاد في رفاهيتهم وازدهار اقتصادهم واستقراره، كما كان لتجارة قريش مع مختلف البلاد دور واضح في تأثرهم بالمظاهر الحضارية والثقافية والإدارية لتلك البلاد، فبرز الكثير من رجالاتهم في مجال الحرب والسياسة والتجارة نتيجة لذلك⁽³³⁾.

2 - يثرب (المدينة المنورة)

تعد مدينة يثرب واحدة من ابرز وأهم مدن الحجاز المتحضرة، التي تقع على الطريق التجاري الذي يربط بين اليمن وبلاد الشام⁽³⁴⁾، وتقع شمالي مدينة مكة على بعد 480 كم (35)، كما أنها نشأت على ارض مستوية ومنبسطة خصبة يحدها جبل أحد من الجهة الشمالية على بعد فرسخين⁽³⁶⁾، مما جعلها مزدهرة زراعياً⁽³⁷⁾.

أما تسميتها فقد وردت في القرآن الكريم بهذه الصيغة « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِلَّا فَرَارًا »⁽³⁸⁾، كما وردت بصيغة المدينة « يَقُولُونَ لِمَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ »⁽³⁹⁾، إلا أن ميل المسلمين كان مع استخدام اسم المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة لاقتترانه بظهور الإسلام وانتشاره وهجرة الرسول (ﷺ) إليها.

إن توفر أسباب الحياة ووسائل المعيشة في مدينة يثرب، على الصعيد الزراعي والتجاري، شكّلت عوامل جذب للسكان وشجعتهم على الاستيطان فيها⁽⁴⁰⁾، فكان العمالة أول من استوطن مدينة يثرب، ومن ثم تغلبت عليها بعض القبائل اليهودية فاستقرت فيها⁽⁴¹⁾، إلا أن هجرة اليهود إلى يثرب لم تظهر بشكل واضح إلا في القرنين الأول والثاني الميلاديين، أثر الحروب التي اندلعت بين الرومان واليهود في بلاد الشام سنة 70 م، فانتهدت بخسارة اليهود وطردتهم منها ففرقوا في البلاد، فهاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع إلى شمال الجزيرة العربية ليستقروا بشكل نهائي في يثرب، ليختلطوا بالعرب من سكان يثرب

ويؤثروا ويتأثروا بهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، فعاشوا حياة قائمة على العصبية القبلية أيضاً⁽⁴²⁾.

إن دور اليهود الاقتصادي في يثرب كان أكبر بكثير من دور العرب، فعملوا في التجارة مما أدى إلى ازدياد أموالهم بشكل ملحوظ، فسيطروا على الجانب الاقتصادي في يثرب، كما اهتموا بالزراعة إلى جانب التجارة، ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا في مزاوله المهن المهمة، فبرعوا في صياغة الذهب والفضة وصناعة الأسلحة وغيرها من الصناعات الأخرى، لاسيما بني قينقاع الذين اشتهروا في مجال الصياغة، فكان لهم سوقهم الخاص الذي عرف باسمهم⁽⁴³⁾.

بقي بنو النضير وبنو قريظة مقيمين في مدينة يثرب حتى هاجرت إليهم قبيلتنا الأوس والخزرج من بلاد اليمن في حدود القرن الخامس للميلاد⁽⁴⁴⁾، فارتبط الطرفان بعلاقات ودية وتحالفات دفاع مشترك ضد الأخطار الخارجية، وظل الأوس والخزرج مقيمين في يثرب عاملين في مجال الزراعة، وعندما ساءت العلاقات بين القبيلتين من ناحية واليهود الذين استبدوا بالمدينة وتسلطوا عليهما من ناحية أخرى، اضطر أبناء القبيلتين إلى الاستنجاد بالغساسنة، الذين قدموا لنجدتهم ضد اليهود في يثرب⁽⁴⁵⁾.

استمر أبناء الأوس والخزرج يعيشون في وئام وسلام في بداية الأمر، لكن سرعان ما نشبت الحرب بينهما، وتدخلت القبائل العربية الأخرى فيها، فكانت الغلبة في أكثر الأحيان لأبناء قبيلة الخزرج، مما دفع الأوس إلى عقد المحالفات مع قريش ضد الخزرج، إلا أن قبيلة قريش كانت أكثر حكمة من كلا الطرفين، إذ رأت أن عدم التدخل في حرب لا تعود عليها بفائدة تذكر أفضل ما يكون، فاضطرت قبيلة الأوس إلى التحالف مع قبيلتي بني النضير وبني قريظة ضد الخزرج، وما أن بلغ النبأ إلى الخزرج، حتى أرسلوا إلى اليهود ليتأكدوا من عدم تقديم المساعدة للأوس، فأعلمهم اليهود بعدم رغبتهم في التدخل في هذه الحرب، إلا أن الخزرج أرادوا إن يضمنوا ذلك، فطلبوا منهم رهائن كدليل على صدق نواياهم، فأعطوهم أربعين غلاماً منهم، وسرعان ما خيروهم بين الرحيل عن المدينة أو قتل الغلمان، إلا أنهم رفضوا الرحيل مضحين بالغلمان من أجل البقاء بيثرب، فقتلت الخزرج الرهائن، مما دفع باليهود إلى الدخول في الحرب إلى جانب الأوس جهاراً⁽⁴⁶⁾، فكانت النتيجة أن نشبت حرب بعث التي انتهت بانتصار الأوس⁽⁴⁷⁾، فتصالح الطرفان وتم الاتفاق على تشكيل حكومة في يثرب تعمل على استقرار الأوضاع الداخلية فيها، ويكون عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي

ملكاً عليهم، وبينما هم يعدون العدة لتتويجه هاجر الرسول (ﷺ) إلى يثرب، ليصبح اسمها (المدينة المنورة) أو (مدينة الرسول) أو (المدينة)، فأمنوا بدعوته ونصروه، فسموا بعد ذلك بالأنصار لناصرتهم للرسول (ﷺ)، فعدلوا عن تولية بن سلول الذي أصبح على رأس المنافقين⁽⁴⁸⁾.

3 - الطائف

تقع الطائف على بعد اثني عشر فرسخاً إلى الجنوب الشرقي من مدينة مكة في موقع مرتفع⁽⁴⁹⁾، يبلغ ستة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر⁽⁵⁰⁾ وأول من سكنها العمالقة حالها في ذلك حال بقية مدن الحجاز، إلا أنها لم تلبث أن استقطبت أبناء إحدى القبائل العربية وهي قبيلة ثقيف التي زاد ثراؤها، فرأت أن تقيم سوراً حول المدينة يتحصنون به من الغارات الخارجية على مدينتهم، ويقال أنها سميت بالطائف لإطافة السور بها⁽⁵¹⁾، وانقسمت ثقيف إلى قسمين عقد كل منهما الأحلاف مع قبائل أخرى، فتقاتل القسمان فيما بينهما، إلا أنهما لم يلبثا أن تصالحا، وعاشا بسلام ولم تقم حرب بينهم حتى دخولهم في الإسلام⁽⁵²⁾.

امتازت الطائف بعدة أمور جعلتها تتفوق على غيرها من مجاوراتها من المدن كتوفر المياه الجارية وخصوبة أرضها وصلاحياتها للزراعة، مما جعلها بلداً زراعياً ثرياً، تزرع فيه معظم أنواع الفواكه والخضار التي كانت تزرع في بلاد الشام، فأصبحت نتيجة لذلك مصيفاً لسكان مكة من قريش⁽⁵³⁾.

لم يقتصر سكان الطائف على الزراعة فقط بل إنهم استغلوا موقع مدينتهم المتميز في ممارسة التجارة، لاسيما أنها تقع على طريق القوافل التجارية المارة عبرها من العراق إلى اليمن من جهة، وعلى الطريق الذي يربط شمال الجزيرة العربية بجنوبها، كما أن التقارب الجغرافي بين مكة والطائف أدى دوراً كبيراً في تقوية صلات النسب والعلاقات الودية بين سكانهما، فضلاً عن التبادل التجاري والمصالح المشتركة إذ كان لقريش أرضٍ يزرعها أهل الطائف، كما كانت قريش تقرض أهل الطائف ما يحتاجونه من أموال⁽⁵⁴⁾.

إن اشتغال سكان الطائف بالزراعة بحكم خصوبة الأرض وتوفر مياه الري والتجارة بحكم الموقع الجغرافي كما أسلفنا، جعلها تقف على قدم المساواة مع مكة من حيث الترف والغنى وقوة اقتصادها⁽⁵⁵⁾.

بانتهاى الحديث عن الحياة السياسية في مكة والمدينة والطائف نكون قد قدمنا موجزاً بسيطاً عن الحياة السياسية في الجزيرة والعربية، ولاسيما الحجاز ذلك الجزء الذي أصبح نواة الدولة العربية الإسلامية فيما بعد.

المبحث الثاني: الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية إبان البعثة النبوية

إن الأحداث التي عاشتها الجزيرة العربية على مختلف الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، جعلت منها أرضية خصبة لتقبل أي فكر أو دين أو حركة تهدف إلى توحيد أجزائها وقبائلها، فكان لظهور الدعوة الإسلامية في مدينة مكة، ونزول الوحي على الرسول الكريم محمد (ﷺ)، دوراً كبيراً في قلب الموازين في الجزيرة العربية، كما أن نزول الوحي على نبي عربي النسب ولد من رحم الأمة كان له أثره في سير الأحداث وتقبل الدين الجديد، لاسيما أنه أحد أبناء قريش تلك القبيلة التي كانت تقطن مدينة مكة التي كانت تتمتع بمكانة دينية مقدسة عند العرب لوجود الكعبة فيها، فضلاً عن أهميتها الاقتصادية والسياسية بين مدن الجزيرة العربية، فكانت انطلاقة الدعوة الإسلامية منها.

إن الرسالة التي جاء بها الرسول محمد (ﷺ) لم تكن للعرب فقط، وإنما كانت للإنسانية جمعاء من أجل إحداث تغيرات جوهرية على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبما أن مقر انطلاقها كان من الجزيرة العربية، فإنها ستؤدي دوراً محورياً رئيساً له أثره الواضح في تاريخ الدولة العربية الإسلامية.

في الحقيقة إن تاريخ الجزيرة العربية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بسيرة الرسول محمد (ﷺ)، الذي نجح في إقامة دولة عربية إسلامية، لذا لا يمكن فهم تاريخ الجزيرة العربية بشكل دقيق دون التطرق لسيرة الرسول (ﷺ) والرسالة التي حملها للإنسانية.

أولاً: ولادة الرسول (ﷺ) ونشأته

ولد الرسول الكريم محمد (ﷺ) في يوم الاثنين الموافق 12 ربيع الأول سنة 571 م أو ما عرف بعام الفيل⁽⁵⁶⁾ من أبوين رفيعي النسب، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان⁽⁵⁷⁾،